خيالات الوحدة

كان سعيد يمثل حالة فريدة ومثيرة للاهتمام بالنسبة لي، على الرغم من تشابهنا في كثير من الأمور، حتى في الاسم نفسه، وفي حالة الوحدة التي يعيشها كلانا، إلا أنه لفت انتباهي بصمته المطبق وهدوئه التام، فلم أره يتحدث إلى أي شخص ولو لمرة واحدة.. كانت غرفته مواجهه لغرفتي على سطح ذلك المبنى نصف المتهدم، ولم تكن حالتي المادية السيئة تسمح بأكثر من هذا، وبالتأكيد حالته لم تكن تختلف عن حالتي كثيرًا..

كنت أسعى في البداية إلى الصحبة الآدمية معه، فمعارفي شبه معدومة، وأصدقائي لا وجود لهم، ولهذا بدا أن الحصول على جار يمكن أن أتحدث معه أو أشاركه أفكاري ليس بالأمر السيئ أبدًا.. وكم من مرة حاولت التحدث معه، ولكنه في كل مرة أبدأ معه حديث كان يظل صامتًا هادئًا! كأنه أصم أبكم، حتى تحيتي له في لقاءاتنا العابرة على السلالم أو على سطح البيت لم يكن

يرد عليها ولا يلتفت لي، ولكني سمعته مرة يتحدث عبر الهاتف إلى أحدهم، الذي حدث هو أنني حاولت أن أجري اتصالًا بأهلي في قريتي الصغيرة التي تركتها منذ سنوات بعيدة؛ بحثًا عن لقمة العيش في مكان أفضل، ولكن لم أصل للوضع الذي تمنيته لذاتي، وفى محل البقالة وجدت (سعيد) هذا يتحدث بصوت خافت مع شخص ما على الطرف الآخر، حاولت استراق السمع، ولكنه عندما انتبه إليَّ أنهى المكالمة على الفور، ثم هرول بخطوات سريعة في اتجاه المنزل..

وهناك بدأت بذرة الشك تنبت في داخلي وأعماقي، بالتأكيد هناك سر يخفيه هذا الرجل، صحيح أنه ليس من حقي الاطلاع على أسرار غيري، لكن الفضول هو سمة البشر التي صنعت تقدم الإنسانية!

وما كان يفعله سعيد ليلًا زاد من خوفي وذعري، أصوات دق وصراخ، وكأن هناك من يتشاجر معه.. ولكن في تلك الليلة بالتحديد كان الأمر مختلفًا، كنت صاعدًا إلى غرفتي في وقت متأخر من الليل، سمعت خطوات تتردد في بئر السلم، وعندما نظرت إلى الأسفل وجدت (سعيد) صاعدًا وهو في حالة مزرية، كمن تعرض لعمل شاق أو للضرب المبرح!

كنت في حالة صعبة أنا الآخر، لقد كان يومًا شاقًّا، وبالتأكيد هيئتي لا تختلف كثيرًا عن هيئته، لذا أسرعت إلى غرفتي وأغلقت بابها جيدًا.. إلا أنني لم أستطع النوم أبدًا في تلك الليلة، ظللت

أراقب غرفته من خلال زجاج نافذتي المكسور، لم أستطع الرؤية جيدًا، لكنني لاحظت أنه بعد فترة أطفأ نور الغرفة، وأشعل شمعة صغيرة تقريبًا وراح ظله يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.. وهذا ما زاد من قلقي واضطرابي ناحيته أكثر، فوجدت نفسي أنا الآخر أذرع الغرفة مشيًا، ونمت وفي عقلي عدة وساوس شيطانية لم أستطع التغلب عيلها رغم محاولاتي الكثيرة، لماذا لا يكلم أحدًا؟ لماذا يعود متأخرًا في تلك الهيئة المزرية؟ لماذا لا أحد يتحدث عنه في منطقتنا؟ هناك شيء ما خطأ..

هناك شيء ما وعليّ أن أعرفه.. وقُبَيْل الفجر بدقائق انفتحت غرفته، قبل أن يغادرها بخطوات متثاقلة كأنه يؤدي واجبًا ثقيلًا على النفس.. سأتبعه وأصارحه بما يدور في عقلي..

لم أتردد لحظة وأنا أفتح باب حجرتي، قبل أن ترتجف أعصابي مرة أخرى، ماذا لو كان هذا الفتى لا يمت بصلة إلى عالم البشر؟ فكرة صبيانية.. أليس كذلك!

حسنًا، لقد دارت هذه الفكرة بعقلي في تلك اللحظة، ولكنني سرعان ما طردتها من عقلي، وأنا أتبعه بخطوات متثاقلة بطيئة، وقد أحسست بالعبء النفسي الرهيب يثقل جهازي العصبي.. وتبعته.. من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، كان يدور في دائرة كبيرة، ويعود كل مرة إلى نقطة البداية، لكنه لم يلتفت مرة واحدة وراءه ليراني في أثره، ولم ألتفت أنا الآخر ورائي؛ لأنني

كنت متابعًا لكل خطوة يخطوها، وكل همسة يصدرها من بين أنيابه نتيجة البرد القارس..

وفي النهاية غيَّر مساره وخطا إلى زقاق ضيق كنت أعرف أن نهايته مسدودة وبلا شوارع جانبية.. ولكنني تبعته بإصرار، وفي الزقاق ظللت واجمًا لدقائق عدة، وأنا أنظر إلى الزقاق الموحل الممتلئ بأكياس القمامة وروث الحيوانات.. كان الزقاق خاليًا تمامًا، أين ذهب سعيد هذا؟ لا أعرف.. لقد اختفى.. إنه.. إنه...!

ولم أتوقف ولو للحظة عن الجري، حتى وصلت إلى غرفتي، وهناك التقطت أنفاسي بصعوبة، وظللت أرتجف في رعب حتى بدأت أضواء الصباح الأولى تهل، وفي النهاية غلبني الإرهاق والتعب فنمت، وأنا أدعو الله أن يمر اليوم على خير..

استيقظت ظهرًا، وعلى الفور هببت إلى نافذتي لأطالع كابوسي الجاثم على روحي، لكنني هذه المرة رأيت مشاهد مختلفة، كان صاحب المنزل ومعه اثنان من أبنائه ينظفون الغرفة ويخرجون عده أشياء قديمة مهلهلة منها، لم أستبعد أنها أشياء ذلك الـ «سعيد»، وقد طرده صاحب المنزل بعدما عرف أخيرًا ما هو ذلك الشيء.. حسنًا لا بد أن أصارحه بما حدث بالأمس.. خرجت من غرفتي وتوجهت إليه، فبدا التساؤل على وجهه ووجوه معاونيه على السواء!

تنحنحت بحرج قبل أن أقول: أهي متعلقات سعيد؟

قال صاحب المنزل باستغراب: أي سعيد!

قلت بسرعة: ذلك الرجل الصامت الذي سكن الغرفة من أسبوع، كان يدعى (سعيد)!

قال صاحب المنزل في ترقب: ماذا عنه؟!

قلت بنفس السرعة: لقد رأيت أشياء غريبة منه، إنه يعود كل يوم في ساعة متأخرة وفي حالة مزرية، ويغادر في أوقات غير معقولة، ولا يحدث أحدًا أبدًا ولقد تبعته بالأمس...

ولم أستطع أن أكمل حديثي، وأنا أرى علامات الدهشة والاستغراب ترتسم على وجوه الثلاثة، **قبل أن يتساءل أحدهم:** ومن أين عرفت أن اسمه سعيد؟

فكرت قليلًا ولم أجد أي إجابة شافية، ولكنني لم أجد لهذا السؤال جانبًا محوريًّا في الأمر، **قال صاحب المنزل بدهشة:** أنا لا أعرف أي وحيد غيرك، ولم يسكن أحد هذه الغرفة منذ سنوات، وأنت هو من يأتي متأخرًا، ويغادر في أوقات غريبة، وأنت الذي لا ترد التحية عندما تلقى عليك، أنت تتحدث عن نفسك يا رجل..

قال أحد أبنائه مصدقًا: الحق هو ما يقول!

ابتلعت ريقي بصعوبة، قبل أن أتركهم وأعود إلى غرفتي، وهم يضربون كفًّا بكف! أي لعبة حقيرة تلك التي يلعبونها.. بالتأكيد هناك مخطط ما يحيكونه ضدي، عليَّ أن أخذ الحذر في الأيام القادمة، وأراقب ذلك الـ «سعيد» جيدًا وربما يكون رد فعلي عنيفًا في كل الأحوال! عدت لغرفتي ثم قمت بإعداد الفطار وأنا

شارد الذهن أفكر في كل ما حدث معي بسبب سعيد هذا، ولم أصل لشيء جديد، فقررت الذهاب إلى عملي رغم أن الوقت كان مبكرًا، فأنا أعمل عامل في أحد مصانع البلاستيك التي طالما تمنيت أن أمتلك إحداها، وفي مكان العمل فجأة ظهر لي سعيد، وهو يتحدث بصوت هامس مع زميل لي، حاولت أن أعرف ماذا يقولون ولكن لم أصل لشيء، فقررت انتظار رحيل ذاك السعيد ثم محاولة معرفة الحديث الذي دار من زميلي العامل فهو أيضًا صديقي.

وعندما ذهبت لاستطلاع الأمر من زميلي **قال لي باستغراب:** عن أي رجل تتحدث؟! **قائلًا:** أنا هنا منذ الصباح الباكر أقف بمفردي ولدي عمل كثير، ولا أريد الحديث مع أحد عن أي شيء، **ثم عاد لاستكمال عمله وتركني في حيرة شديدة وضيق أتسائل:** لماذا ينكرون وجود ذاك السعيد عني! ثم تركت عملي مبكرًا ذاك اليوم بسبب عدم قدرتي على التركيز في أي شيء عدا سعيد، ومشيت هائمًا على وجهي في الشوارع لا أعرف أين سأذهب، فأنا لا أريد العودة إلى غرفتي مرة أخرى قبل معرفة كل ما يخص ذاك الـ «سعيد»، ثم قررت الذهاب إلى أحد أصدقائي القدامى، ربما يستطيع تفسير كل ما يحدث معي، وربما يساعدني ويجد لي بيتًا آخر لكي أسكنه، وأترك ذلك المنزل الغامض، صديقي هذا أعرفه منذ المدرسة الابتدائية وأستمر معي حتى انتهاء مرحلة الدراسة قبل الجامعية، ولكنه التحق بكلية الطب وتخرج

منها، وأنا التحقت بكلية الهندسة كما أردت ولكني فشلت في التخرج منها للأسف الشديد، ثم تخصص صديقي هذا في مجال الطب النفسي وذاع صيته، خاصة بعدما أصبح يظهر في برامج تلفزيونية عديدة، وطالما عرض عليَّ المساعدة دون أي مقابل من أي نوع تقديرًا لصداقتنا الطويلة، وعندما وصلت عيادته انتظرت قليلًا حتى يحين دوري في الدخول له، وعندما دخلت غرفته استقبلني بسعادة كبيرة ورحب بي بطريقة رائعة أسعدتني كثيرًا، وبدأنا الحديث عن ذكريات الماضي والمدرسة والزملاء وحدثني أيضًا عن زوجته وأبنائه، وسألني عن عدم زواجي حتى الآن، ولم أجد سببًا واضحًا أجيبه به سوى أنني فشلت في هذا الأمر، كما فشلت في دراستي وفي المحافظة على ما ورثته من أبي من أموال وعقارات لي ولأخوتي، وفشلت أيضًا في عمل أصدقاء جدد بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوي، تركني صديقي أتحدث حتى بدأت في البكاء بشدة، ولم يطلب مني التوقف عنه، **بل قال لي:** من الجيد أن تبكيَ فسوف يجعلك هذا شخصًا أفضل نفسيًّا.

واستطرد قائلًا: لكل شخص خلقه الله نصيب ورزق من الدنيا، وربما أنت رزقك ليس في الأموال والزواج والأبناء، ليس الحياة هكذا فقط، بل هناك أرزاق أخرى معنوية، مثل الرضا وراحة البال والسعادة.

فقاطعته قائلًا بنبرة ضيق واضحة: حتى راحة البال تلك غائبة أيضًا عن حياتي..

ثم بدأت أشرح له حكايتي مع «سعيد»، وكان هو يستمع لي جيدًا ويدون بعض الملاحظات تقريبًا، فلا أعرف ماذا كان يكتب بالضبط، ولم يقاطعني وأنا اتحدث، بل تركني حتى تعبت أنا من الحديث والشرح بدقة، **ثم سألني:** هل بيني وبين صاحب البيت خلافات، وكذلك بيني وبين زميلي في العمل؟ **فأجابته:** لا إطلاقًا، بل علاقتي مع الجميع جيدة، فأنا لا أختلط بأحد بشكل زائد عن الحاجة، مما يسبب لي المشاكل.

ثم قال صديقي الطبيب خالد: أعتقد أنك تعاني من إحباط واكتئاب حاد، وصل بك إلى درجة الاضرابات السمعية والبصرية، وكل هذا بسبب عدم شعورك بالرضا عن حياتك، وما حققته فيها والاعتراض على إرادة الله، أنت تحاول في عقلك الباطن أن تجد لك شخصًا فاشلًا جدًّا من وجهه نظرك تتخذه صديقًا لك، وتحاول إظهار ذاك الشخص بأسوأ صورة ممكنة حتى تقنع نفسك أنك أفضل منه، وأن هناك من هو ضائع وتائه في حياته أكثر منك، أنت تحاول خلق صورة لنفسك في الواقع بل أقبح، لذا تبتعد دائمًا عمَّن حولك في حياتك؛ لأنك تخشى دومًا شعورك بينهم أنك أقل منهم، يجب عليك الانخراط في الواقع والتقرب من الذين يودون التقرب منك، لا تتهرب من واقعك ولا تخلق لنفسك عالم افتراضي، بل الأفضل أن تتقدم في حياتك باستكمال دراستك والتدرج في عملك مثلًا.

سمعت هذا الكلام ولم أكن أعرف بماذا أرد وكيف أدافع عن نفسي، **ثم فجأة انتبهت وصديقي يقول:** لا تيأس، الفرص موجودة طالما حياتنا قائمة، ثم رددت عليه بوعده أن أحاول وأبحث عن كيفية استكمال دراستي مرة أخرى وأسعى إلى مكانة أفضل لي، خرجت من العيادة وأنا بداخلي رغبة كبيرة في تحدي نفسي لتحقيق ذاتي، خفت أن تهبط تلك الرغبة إذا انتظرت صباحًا من أجل الذهاب للجامعة ومحاولة استكمال دراستي، لذلك ذهبت فورًا إلى الجامعة وتحدثت إليهم في شؤون الطلاب وشعرت بفرحة أفتقدها منذ زمن طويل، حينما علمت بترحيبهم بي حتى أنهي دراستي، وفي ذاك اليوم عدت إلى البيت وبحثت عن صاحبه بنفسي لأعتذر له عن حديثي من قبل، **وبالفعل تحدثت مع الرجل قائلًا له:** أعتقد أنه كان حلمًا سخيفًا، كان الرجل يشعر باستغراب مني، لكن مر الموقف وصعدت إلى غرفتي وأنا أفكر فيما قاله صديقي الطبيب، وهل سأستطيع التغلب على تلك الخيالات أم لا! وهل سأقابل ذاك السعيد مرة أخرى أم لا!